دار قصص وحكايات
للنشر الإلكتروني ٢٠٢١

مجموعة
قصصية

تايلوزين

د. عبدالباسط واكية

تايلوزين

مجموعة قصصية

د. عبدالباسط واكية

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني
kesasandhekayatpub.blogspot.com

العنوان: تايلوزين

النوع الأدبي: قصص قصيرة

المؤلف: د. عبدالباسط واكية

قوة السرد: كتابات ابداعية

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2021

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2021

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

الإهداء...

إلى بقرة أمّ صطّوف؛ أول حالة مرضية أعمل بها بعد تخرّجي من الجامعة... أهديها مجموعتي القصصيّة لأنّها أعلت شأني في سماء المهنة عندما نهضت من فورها وقد كانت مشرفة على الهلاك بسبب حمى الكلس Hypocalcemia، صحيح أنّها غادرت الحياة الفانية منذ عقود. بعد تلك الواقعة بسنتين. ولكنّ البرّ لا يبلى ...

بقرة أمّ صطّوف تستحقّ أن أخلّد ذكراها في هذه المجموعة القصصيّة لأنّها كانت شرارة النجاح، إذ ليس من طبعي نكران الجميل...

د. عبد الباسط واكيّة

حمص / سورية

المقدمة...

تمتلئ حياة الطبيب البيطري بالمواقف المؤلمة والطرائف المضحكة، وذلك لتعامله اليومي مع الشريحة الأكثر بساطة في المجتمع، مربي البهائم.

تايلوزين...

هي مجموعتي القصصية السابعة المنشورة إلكترونيا، وهي مجموعة مختلفة عن سابقاتها في أنها تضم قصصا ومواقف مرتبطة بالمزاولة اليومية لمهنة الطب البيطري.

وتايلوزين هو نوع من أنواع المضادات الحيوية شائعة الاستخدام في معالجة الحيوانات، فعلى الرغم من وجود الكثير من الأدوية المشتركة ما بين الحيوانات والبشر، إلا أن التايلوزين هذا لا يستعمل إلا للحيوانات، وبذلك يكون عنوانا واضح الدلالة لمحتوى المجموعة.

أما لماذا أسميت المجموعة بهذا الاسم؟ فهو لتخصصه في الطب البيطري، ولرشاقة اللفظ، وللابتعاد عن العناوين التقليدية التي استعملها الكثير من الزملاء عند نشر المجموعات المشابهة...

ما أرجوه حقا هو أن تبعث هذه القصص ابتسامة في قلوبكم ينالني منها أجر، وما هذا بقليل!

د. عبد الباسط ابراهيم واكيّة

حمص/تلبيسة

خارج الحدود

كان دخول قريتنا بين حجري رحى الحرب مفاجئاً، فلم يترك لنا مجالا لأخذ شيء، خرجنا هكذا بثيابنا تاركين خلفنا بيوتنا وما تحوي من دفء...

هربنا هروبا جماعيّا، ثمّ أخذنا نفترق أسرة بعد أسرة كلّما دخلنا بلدة من البلدات على طريق النّزوح الطّويل، حتّى وجدت نفسي مع أسرتي الصّغيرة نائمين خلف سور إحدى الحدائق في دولة مجاورة.

نفد ما كنت أحمله من مال على الطّعام، ونفد أيضا ثمن خاتم زوجتي، فهنا لا تحرّك ساكنا من دون المال، حتّى شربة الماء تدفع ثمنها وثمن تبوّلها أيضا.

لقد باتت حالتنا مزرية، لم أعتد على طلب المساعدة، ولا يمكن التعويل على إنسانية البشر، فهم يمرّون أمامنا، يجرّون كلابا نظيفة، ولا يكترثون بأطفالي الذين ينامون في العراء على شرائح الكرتون...

لا يكترثون بالجروح والآلام!

بعد معاناة من الجوع والبرد والذّلّ، أشفق علينا رجل محسن فانتقلنا لنعيش في غرفة ملحقة ببيته، وقد تصدّق علينا بربع ما نحتاج من فرش وطعام وأدوات معيشة، فبدأت حالتنا تتحسن تدريجيّا من حيث السّكن، على الأقلّ بتنا ننام تحت سقف. أدركُ في داخلي أنّنا لن نعود إلى الوطن في المدى المنظور، ولو عدنا، فلن نجد بيتنا! لذلك لابد من البحث عن عمل...

قصدتُ مزارع تربية الحيوانات لأعمل فيها، ولكنّهم يطلبون أوراقا ثبوتيّة، على رأسها الشّهادة العلميّة التي تثبت أنّني طبيب بيطريّ!

لا أحد هنا يصدّق أنّني طبيب بيطريّ، فكلّ الأيْمَان المغلّظة لا تعادل إبراز الشّهادة العلميّة!

اتّجهتُ يوما إلى مزرعة كبرى تربّي الأبقار وتطلب عاملا، وقد عزمتُ على نسيان الشّهادة التي أحملها، ولتذهب الشّهادة إلى الجحيم، لن أقول لهم إنّني طبيب، إذ لا أحبّ اجترار الفشل والرّفض مرّة أخرى! فأنا بحاجة ماسّة للعمل!

قالوا نعم نحن بحاجة إلى عامل حظائر، فاجتزتُ الفحص الطّبي الذي يؤكد سلامتي من الأمراض التي يمكن أن أنقلها إلى أبقار، كما اجتزتُ فحص المقابلة بسهولة، إذْ تبين لهم أنني صاحب خبرة في هذا المجال.

سررت جدّا عندما قال لي المدير المسؤول إنّه بإمكاني مباشرة العمل اعتبارا من الغد.

في اليوم التالي، لبست لباس العمال، والتحقت بقسم الأبقار التي على وشك الولادة، أضع لها الطّعام، وأحمل الرّوث من تحتها، وأراقبها ليلا خلال نوبتي لأستدعي الطّبيب عند الحاجة!

كنت أساعد الأبقار على الولادة مع باقي العمّال، وأقوم بتصحيح الولادات المتعسّرة بمهارة، ولا أستدعي الطّبيب إلا في الحالات التي تتطلب عملية قيصريّة!

وكنت أساعده أيضا في العمليات الجراحيّة، أمّا مساعده فقد كان يناولنا الأدوات الجراحيّة وباقي العمال ينظرون من بعيد.

يسألني الطبيب: من أين لك كل هذه الخبرة؟!

فأجيب بأنّني عملتُ في مزرعة للأبقار في بلادنا لمدّة عشرين عاما!

كان العمّال يتحدّثون عن مهارتي في العمل عموما والتّوليد خصوصا لرئيس القسم، فبدأ الرّجل يعاملني باحترام فائق خلال زياراته للحظائر.

وكنت أعالج الحالات الإسعافيّة للأبقار المريضة عندما يكون الطّبيب غائبا، ولو أنّه كان يستنكر عملي في البداية، ثم ما يلبث أن يهدأ عندما أسأله إن كان تصرّفي خاطئا من حيث التّشخيص والمعالجة؟ فيقول لا، ثم يهدأ أكثر عندما يرى أن البقرة قد تماثلت للشّفاء!

عملي في الحظيرة شاقّ جدّا، وقد تفانيت فيه لسببين، لأنّني أحبّ أن أنجز العمل المطلوب على أكمل وجه أيّا كان هذا العمل، ولأنّني أحبّ أن أطوّر نفسي بالتّميّز، فبتُّ أساهم في حلّ المشاكل الصّحيّة بشكل غير مباشر عن طريق الهمس في أذن الطبيب المسؤول، وهو بدوره ينقل الحلول إلى الإدارة.

هذا جعله يستدعيني إلى مكتبه حيث نتناقش في التّربية والأمراض، فأتحدّث إليه بلهجة عامّيّة ولا أستخدم المصطلحات العلميّة، وأحيانا أتقصد الإجابة الخاطئة حتّى لا يشعر بتفوّقي عليه، وحتّى لا يُفتضح

أمري، فمن النّاحية المهنيّة: لأن أبقى عاملا بمستوى طبيب، خير لي من أن أكون طبيبا في مستوى عامل!

هكذا، وخلال وقت قصير، تمّت ترقيتي إلى كبير العاملين في المنشأة كلّها، فصرت مسؤولا عن مراقبة أدائهم، وعن نظافة الحظائر...

لقد زاد راتبي قليلا مع زيادة المسؤوليّة ولكنّني ماأزال أرتدي ثياب العمّال، إذ قد أقوم بجمع الرّوث في أيّ لحظة يكون فيها أحد العمّال غائبا.

أنا الآن سعيد بعملي، فقد بلغتُ أقصى ما يبلغه العامل، وقد تكيّفت مع حالتي الجديدة لدرجة أنّني نسيت شهادتي العلميّة التي ضاعت مع ضياع الوطن!

سيد الموقف

اها قد مضى على تخرجي أربعة أشهر ولم يستدعني أحد لمعالجة حتى خروف صغير.

لقد قرأت الكتب أربع مرات، وفي كل مرة أسد المزيد من ثقوب ثقافتي الطبية، إنني أتعجب من نفسي، فقبيل الامتحانات لم أكن أقرأ بهذا الشكل.

ربما لأن الواقع هو الامتحان الحقيقي.

ملأتُ حاشيات الكتب بالملاحظات، والأسطر بالخطوط الحمراء، أقرأ بدقة غير مسبوقة، حتى تخيلت نفسي صندوقا فاض بالعلم البيطري.

أشعر الآن بالنعاس الشديد، فقد تخدرت أجفاني ولابد من النوم.

وضعت رأسي على الوسادة وأنا أحلم بالعمل وجني المال كما يفعل الدكتور رفيق في قريتنا، جاء من المدينة يمشي على قدميه، وهو الآن يمتلك سيارة حديثة، وحجما كبيرا من العمل، يأتي من المدينة في الصباح الباكر، ويعود مع الغروب.

هل يمكن أن أكون مثله في يوم من الأيام؟

نمت وأنا أحدث نفسي بهذا...

في الساعة الواحدة ليلا سمعت طرقا متلهفا لجوجا على الباب..

كان الطارق أحد أبناء القرية، ينطق كل عشر جمل معا، فهمت منه أن البقرة متعسرة في ولادتها، وأن علي أن أساعدها!

شعرت بماء بارد ينسكب على عمودي الفقري

ترى كيف يكون التوليد؟

ومن أين سأخرج الجنين؟ من الرحم أم من الكرش؟!

ماذا لو لم أستطع إخراجه ..!؟

ماذا لو احتاجت إلى عمل جراحي ..!؟

أسئلة كثيرة تواردت إلى رأسي، والرجل يتحدث وأنا أتظاهر بالاصغاء إليه، حاولت الإجابة على هذه الأسئلة، ولكن من دون جدوى، لقد نسيت علم التوليد جملة وتفصيلا...

قلت للرجل:

اسبقني وسألحق بك..

وهرعت إلى كتاب علم الولادة أقلب صفحاته وأنا أرتدي ثيابي، ولكن شيئا لم يعلق بذهني! علي المغادرة، لقد تأخرت...

وأنا في الطريق، كنت أخطط للانسحاب التكتيكي، ولكن ما هو الحل البديل... !

وصلت الحظيرة التي امتلأت بالرجال، وكان من بينهم أحد تجار المواشي الوقحين، سألتهم:

هل مد أحدكم يده إلى الرحم، فرد التاجر:

نعم أنا مددت يدي وسحبت العجل من يديه ولكن رأسه لم يظهر...

وهنا، كان علي أن أظهر سيطرتي على الموقف والبدء بالهجوم كتدبير استباقي، وكان على أحد الحضور أن يدفع الثمن، وبالتأكيد لن أكون أنا...

قلت له:

هل غسلت يديك بالماء والصابون

هل لبست قفازات النايلون

هل دهنت يديك بالزيت

كيف تسحب اليدين من دون أن يكون الرأس بينهما

هل تعرف درجة الخطر التي أوصلت البقرة إليها...

قلت كل ذلك دفعة واحدة وبنبرة عالية مؤنبة ..

فذهل الجميع، ثم أمرتهم بالخروج وبقاء عدة رجال فقط، ففعلوا من دون تردد...

فعلت ذلك لأنني أمام مصيبة حقيقية، وستكون مصيبتي أكبر لو شعر الحضور بارتباكي وعدم ثقتي بنفسي!

ما هذا الحظ !؟

أن يبدأ الطبيب حياته المهنية بحالة فاشلة، فهذه كارثة لن تمحى آثارها مع مرور الزمن ..

لاحت صفحات كتاب التوليد أمام عيني، وأنا الذي قرأته مرارا وتكرارا حتى نقش في ذهني نقشا، وتخيلت

الولادة وحفظت الرسومات التوضيحية.... أما الآن فلا أتذكر شيئا، وتتراءى أمام عيني منه كلمات وأسطر

وصفحات ورسومات وأجنة محشورة داخل الرحم وأيدي تمسك بالأطراف، حبال، كلاليب...

لا أذكر مما قرأت إلا جملة واحدة:

التواء الرأس إلى الخالف هي وضعية صعبة جدا...

تُرى، صعبة على من؟

على البقرة؟

أم على طبيب مضى على تخرجه أربعة أشهر !؟

فشعرت مرة أخرى بماء بارد ينسكب على جانبي عمودي الفقري !

أنا الآن أمام الاختبار الحقيقي...

أوحى إلي أحدهم بالحل عندما قال:

لو تُرجِع الأيدي إلى الداخل ، ثم تأتي بالرأس، فربما يخرج الجنين...

قلت: طبعا طبعا... ولكن حبذا لو تصمت ... فسكت ..

بدأت بالعمل الشاق، وكأنني أفتح سور الصين العظيم، وقد ربطتُ مستقبلي المهني بنجاح هذه الحالة.

كان العمل شاقاً وصعبا، ولكن يجب أن يُنجز، تذكرت كلمات لأستاذ الولادة في إحدى المحاضرات:

التوليد فن، أكثر مما هو علم...

وأنا فنان، أجيد الخط والرسم والحلاقة وتقليم الأشجار...

تبا، ما علاقة كل ذلك بالتوليد... !؟

دعوت في داخلي بكل تضرع لله، كما تفعل تلك المرأة التي تجلس عند رأس البقرة، سألت الله ألا يكسفني أمام الجميع...

وبعد نصف ساعة خرج الجنين حيا يرزق، تأكدتُ من تنفسه، تفحصت الأم، هي متعبة، ولكنها يقظة...

لا أدري لماذا مددت يدي إلى الرحم مرة ثانية، وإذ بجنين آخر، لم أخبر الحضور عن وجوده حتى صارت يداه ورأسه في الحوض، وكان إخراجه سهلا جدا...

نظر الجميع إلي وكأنني قائد منتصر عائد من إحدى معاركه...

فامتلأتُ بالنشوة وبالثقة، وبدأت بإعطاء الأوامر ، والجميع ينفذ من دون تردد...

حقا، لقد تعلمت في ساعة واحدة أكثر مما تعلمته من كتاب علم التوليد بكل أجزائه!

وكانت أصداء الحالة تتردد في القرية والقرى المجاورة عن ذلك الطبيب الشاب الذي تخرج بالأمس ولكنه بارع جدا في عمله، لقد أخرج من بطن بقرة واحدة جنينين ...

كانت تلك الحالة مفتاح النجاح للبدء بالعمل الحقلي، الذي أخذ يزداد يوما بعد يوم حتى فاض عن استطاعتي اليومية...

علي أن أنام الآن، فأنا متعب جدا، بالكاد أكتب هذه الكلمات...

الدكتور ويكيبيديا

لا أدري إن كان تخصّصي العلميّ طبيبا بيطريّا يتطلّب منّي أن أكون إنسانا موسوعيّا يعرف كل شيء عن كل المخلوقات، من الدّيناصورات المنقرضة منذ آلاف السّنين، إلى النّمل الذي في الجحور، بل وأحيانا عن الإنسان، وكأنّني موسوعة (ويكيبيديا) يجب أن يحتوي عقلي على جواب لكلّ تساؤل يتعلق بذلك!

فأحدهم يسألني: كم عدد البيوض التي تضعها سمكة التْرُويْتْ؟

والأولاد يأتون لي بالسحالي لتحنيطها!

أما إحداهنّ، فتتّصل بي -وسيلة مساعدة- لسؤال مئة ريال في برنامج من سيربح (الفيزون) :

كم كيلو مترا يمكن للبطريق أن يطير في السّاعة الواحدة؟

وهذا جاري يأتي بطائر مهاجر مريض، يريد أن يعرف ما اسمه؟

وفي أي البلاد كان؟

وإلى أي البلاد ذاهب؟

وماذا يأكل؟

وما هو مرضه؟

وما هو علاجه!؟...

أمّا أحد أصدقاء أبي، فيدخل معي في نقاش مطوّل حول أمراض الحيوان، ومدى تشابهها مع أمراض الإنسان، وهل تتشابه الأدوية بينهما؟

وعندما قلت له نعم، تتشابه الأمراض بسبب التشابه التّشريحي والوظيفي، وبالتّالي تتشابه الأدوية ولكن عياراتها مختلفة!

قال بفرح عارم وهو يكشف عن ركبتيه المتورّمتين:

هذا ما كنت أنتظره منك، أنظر، لقد عجز الأطبّاء عن علاج ركبتيّ، أريد منك إعطائي المرهم الذي تستعمله للأبقار في الحالات المشابهة!

وهذا صديقي أحمد، طبيب بشريّ، أرسل لي حالة مستعصية لشاب مصاب بالجرب مع رسالة توصية!

والمشكلة الأكبر أن الجميع ينظرون إلي على أنّني ملجأ للأيتام، فيأتي النّاس لي بكل قطّ معطوب، أو كلب شارد مريض، يتركونه ويغادرون، اليوم جاء لي أحدهم بخمس قطط صغيرة، قال إنّ أمّهم ماتت بالقصف، فتساءلت إن كنت أنفع أن أكون أما صالحة لهم ...!

قال وهو يبتعد مبتسما: أنت طبيب بيطريّ ...!!

حتى في محاولات بحثي عن زوجة، كان حمايَ المفترض يسألني أسئلة صعبة، وكأنّني سأتوظّف في ناشيونال جيوغرافيك:

كم هي مدة الحمل عند الدّلافين؟

كم عدد الأنياب في فم التّمساح؟

عدّد عشرة من الحيوانات المهدّدة بالانقراض؟

كم عدد ضربات القلب عند الضّفدع الإفريقيّ المرقّط؟

طبعا، لا يشفع لي أن أقول: أنا طبيب بيطريّ مختصّ بالحيوانات الاقتصاديّة الكبيرة، فلا أعرف الكثير عن الكلاب والقطط والطّيور، ولا أعرف شيئا عن الأفاعي والسّلاحف والدّبّ القطبيّ! فتلك تخصّصات أخرى.

البارحة زارت أمّي صديقة لها، عجوز مثلها، فنادتني قائلة: أنا أعرف أنك مختصّ بالأبقار، وسأطلب منك طلبا من صلب اختصاصك:

عندي بقرة ترفسني عند حلابتها، أريد منك أن تكتب لي تعويذة أو رقية شرعيّة لتكفّ عن الرّفس!

الصورة الثابتة

لدى عمّي عدد من رؤوس الحيوانات مختلفة الأنواع، أبقار، أغنام، ماعز، دجاج...

لم يطلب منّي معالجة أي من هذه الحيوانات أبدا، لدرجة تصوّرت فيها أنّه لا يعلم بأنّني طبيب بيطريّ! وقد مضى على تخرّجي ومزاولتي للمهنة ما يقارب العشرين عاما... .

إنّه يستعين بالطّبيب (ع) الذي يأتي من المدينة قاطعا مسافة طويلة حتّى يصل، وأحيانا يصل متأخّرا وقد نفق الحيوان المريض أو ذُبح اضطراريّا...

بينما يبعد بيتي عن بيته مسافةً يمكن قطعها مشيا على الأقدام خلال خمس دقائق...

البارحة أرسل لي ابنه (صطّوف) الذي يصغرني بثمانية عشر عاما، فنادني باسمي المجرّد من غير اللّقب الرّنّان (دكتور) أو على الأقل (أبا محمد)...

تبا للألقاب، إنّها تنفخنا لنصبح كالمناطيد الجوفاء... لا أحبّها، ولكن أراها في غاية الأهمّيّة في بعض المواقف...

المهمّ... قال صطّوف:

أبي يريدك في الحال، لأنّ البقرة مريضة...

استغربتُ كثيرا من طلبه وقلت:

اسبقني يا صطّوف، سأتبعك في الحال...

عندما وصلت كان عمّي يشرب الشّاي تحت شجرة التّوت، قال وهو يشير إلى البقرة:

افحصها، ثمّ تعال لتشرب الشّاي...

أمسك صطّوف البقرة، بينما بدأتُ بفحصها بدقّة وثقة حتّى أنال إعجاب عمّي الذي يراقبني من بعيد...

وبعد أن انتهيت، توجّهت إليه وقلت بثقة كبيرة وأنا أتناول كأس الشّاي من يده:

عمي، البقرة مريضة بانزياح المنفحة إلى اليسار، وبحاجة إلى عملية جراحية... .

هزّ رأسه موافقا وقال:

كلامك مطابق لكلام الدكتور (ع) وسيجري لها العمليّة اليوم عصرا...

لم يشعر أحد بالدّخان الذي يخرج من أذنيّ سواي. شربت نصف كأس الشاي المتبقي برشفة واحدة لأبتلع إهانة عمّي، ثمّ استأذنته بالانصراف، فقال لي وأنا أهم بالنّهوض:

(بسلم عليك الحاج صالح من القرية الشّرقيّة، صادفته مبارح، وقال إنّك عملت عمليّة ناجحة لبقرته في السّنة الماضية وامتدحك كتير، وقال إنّك شاطر وفهمان...

(من إيمتا صرت دكتور يا سرّاق الحمام...؟!)

الصّدمة

. صباح الخير دكتور، عذرا لهذا الاتصال المبكّر ، ولكن للضرورة أحكامها كما تعلم، ولدت البقرة يوم البارحة عصرا، ولكنها لم ترم المشيمة، وأرجو منك أن تتفضل بتخليصها لأنّ الوقت المفترض لنزولها طبيعيا قد انتهى ولم يعد هناك أمل في نزولها...

استغربت كثيرا من أسلوب الرّجل الذي كلّمني، فقد كان صوته هادئا وقورا، وقد بالغ في احترامه أثناء الكلام، ولم يقل (البشيمة) بل قالها واضحة بحروفها الكاملة: المشيمة....

وهو بذلك خالف أسلوب جميع مربي الحيوانات، فكان انطباعي الأوّل بأنّه رجل متعلّم ومهذّب، وهذا يكفي حتّى أبادله الاحترام والتقدير، فضلا عن تلبية طلبه بأسرع وقت...

عندما وصلت إليه في القرية البعيدة ، وجدتُ رجلا في الخمسين من العمر رحّب بي ترحيبا كبيرا ، يرتدي جلبابا بسيطا، وتبدو عليه علامات الطيبة والبساطة...!

أخذت منه تاريخ الحالة بدقة، تفحّصت البقرة جيدا، ثم طلبت منه أن يغسل مؤخرة البقرة بالماء والصابون، ففعل.

ناولته الملقط ماسك الحاجز الأنفي، فعلقه في مخطم البقرة بمهارة ثم أمسك به. أدخلت يدي في الرحم، وبدأت بالعمل على تخليص المشيمة، كانت ملتصقة بشدّة!

أخبرت الرّجل بذلك، وبأنّ الأمر سيأخذ منّا المزيد من الوقت، فقال: لا بأس... صرت أدندن بأغنية لأمّ كلثوم: القلب يعشق كل جميل...

فسألني:

هل تعرف الشاعر الذي كتب هذه القصيدة، ومن لحنها؟

قلت: لا...

قال: الشّاعر هو محمود بيرم التّونسيّ والملحن رياض السّنباطي وقد غنتها أم كلثوم للمرّة الأولى في العام واحد وسبعين وتسع مئة وألف...

هل تعرف من أيّ مقام موسيقيّ هي؟

قلت: لا...

قال: إنّها من مقام بيات...

دُهشت كثيرا من ثقافة هذا الفلاح، لأنني أعلم أن الفلاحين لا يهتمون بالثقافة الموسيقية...

ثم أخذ يحدثني عن تلك الحقبة الموسيقية وما رافقها من تغيرات سياسية واجتماعية، وأخذ يسرد لي أسماء لسياسين أسمع بهم للمرة الأولى، وأنا أهز برأسي موافقا وكأنني أعي ما يقوله هذا الرجل...

أخرجت المشيمة، ووضعت في الرحم لبوسات الأوكسي تتراسايكلين، وحقنت البقرة بالمضاد الحيويّ والفيتامين والديفنهيدرامين ومضادات الالتهاب، وأخيرا بجرعة من البروستاغلاندين...

ثم أمرت الرجل أن يعيد غسيل مؤخرة البقرة، ففعل...

قلت له:

غالبا ما يتبع احتباس المشيمة التهابات رحمية، فإذا لاحظت ذلك اتصل بي لأعالجه...

قال مبتسما ومثنيا عليّ:

ما خاب ظني بك يا دكتور...

فشعرت بشيء من الغرور (بل بالكثير)

وبينما كان يسكب الماء على يدي وأنا أغسل بالماء والصابون، جاء شاب صغير، ألقى السلام وقال:

يا دكتور، لقد باتت العيادة مكتظة بالمراجعين، وهم بانتظارك...

قلت له:

ما عندي عيادة في قريتكم يا بنيّ...

ردّ الفتى وقد أشار إلى الرجل:

عفوا، أنا أكلم الدكتور أحمد، طبيب الأطفال...

حارس الحظيرة

كانت ليلة شتائيّة باردة، الثّلج ينهمر بكثافة، الكلاب تنبح في العمق البعيد، والرّياح تعبث بأسلاك الكهرباء في الشّوارع، وبحبال الغسيل على السّطوح، فتصدر صفيرا كأنّه عزيف الجنّ!

سرتْ قشعريرة باردة في جسدي، فأدنيتُ نفسي من المدفأة أكثر!

بين يديّ كتاب أبحث فيه عن النّظريات التي تتحدّث عن أسباب ولادة إناث الحيوانات ليلا أكثر منها نهارا...

معرفتي بالأسباب لن تغيّر من الحال شيئا، لأنّ هذا الأمر كما يبدو جليّا هو أمرٌ غريزيّ فطريّ ربّاني، ولكن لا بأس من البحث فيه. هذا الأمر يؤرّقني، ففي موسم الولادة، لا يكاد يمرّ أسبوع من دون ولادة أو ولادتين لياليّتين عسيرتين ... !

تقول النّظريات القديمة كلاماً حول الولادة يشبه الهرطقة، ولكنّه بلا شكّ كان ذا قيمةٍ ضمن تلك الفلسفة الطّبّيّة التي تقول:

إنّ الجسم يتكون من أخلاط أربعة هي:

التّراب والماء والهواء والنّار... !

أمّا فيما يخصّ الولادة فتقول :

إنّ لضوء القمر تأثيرا في الولادة...

بينما يقول أحد العلماء اليونانيّين من المدرسة الطّبّيّة نفسها:

عندما يصل الجنين إلى حجم معيّن، يعامَل كجسم غريب عن الأم، فلابدّ من لفظه...

ويقول آخر:

إنّما الولادة تكون بسبب هرم الأغشية الجنينيّة وعدم مقدرة الرّحم على التّمدّد أكثر...

بينما تتحدّث النّظريات الحديثة عن آليّات هرمونيّة بحتة تفضي بمجملها إلى الولادة...

في الحقيقة، بدأتْ جيوش النّوم تغزو عيناي قبل الوصول إلى تفسير مقنع حول ميل الإناث عموما إلى الولادة ليلا، عندما طُرِق الباب عدّة طرقات سريعة! فقلت لنفسي:

قُم، ولادة ليليّة أخرى...

فتحتُ الباب فصفعتْ جسدي موجة ريح محمّلة بالثّلج، كان رجلا أعرفه...

سبق كلامه بعباراتٍ دافئةٍ من الاعتذار المبالغ فيه، طالبا منّي الكشف على بقرة في حالة ولادة منذ المغيب، ولكنّها لم تلد بعد...

طلبتُ منه أن يسبقني، لبستُ ثيابي، وتفقّدت أدواتي وأدويتي ولحقت به...

وصلتُ الحظيرة، كان فيها صاحبنا واثنان من إخوته وأمّه المسنّة...

كانت الحظيرة نظيفة، ودافئة نسبيا، في زاويتها كيس كبير من التّبن ينام عليه كلب أبيض اللّون، أو ربما يتظاهر بالنّوم... !

عندما رأوني تراجعوا خطوة إلى الوراء، وقد شعروا بالارتياح والطّمأنينة...

أجريتُ فحصا مهبليا للتأكد من عدم وجود التفاف رحميّ، كان الوضع جيّدا جدا، ولكنّ عنق الرّحم لم يفتح بعدُ بالقدر الكافي لخروج الجنين...

كما أجريت فحصا مستقيميّا، للتّأكد من مجيء الجنين، وقد كان مجيئا أماميّا طبيعيّا...

يعني أنّ مسألة الولادة هي مسألة وقت فقط، ولا يوجد ما يشير إلى ولادة عسيرة...

قال الرّجل:

مادام الأمر كذلك، فلنذهب جميعا للانتظار في المضافة حيث الدّفء ...

وبينما كنّا نشرب الشّاي، سمعنا نباحا لجوجا مستمرّا على باب المضافة! فقال الرّجل:

هيا بنا جميعا، لأنّ البقرة تلد الآن...

كان على باب المضافة الكلب الأبيض نفسه، ينبح ويلوّح بذيله، وكأنّه يحثّنا على الإسراع... !

مشى أمامنا وهو ينبح، يركض عشرة أمتار ثم ّيعود إلينا حتّى وصلنا الحظيرة.

دار حول البقرة دورتين وهو ينبح، ثمّ جلس جانبا جلسة القرفصاء وكأنّه ينتظر أمراً... !

كانت البقرة تلد فعلا، وقد ظهرت قوائم الجنين الأماميّة ومخطمه.

فما كان منّا إلّا أن ساعدنا البقرة مساعدة بسيطة، فخرج العجل حيّا يرزق!

عندها، صعد الكلب إلى مكان جلوسه الأول فوق كيس التّبن، تمدّد عليه، تثاءب تثاؤبا طويلا، ثمّ أغمض عينيه مطمئنّا بعد أن أدّى واجبه... !

الطّبّ البديل

عند وصولي إلى بيتها رحّبت أمّ غازي بي ترحيبا حارّا، فهي تحبّ بقرتها، وتثق بمهارتي الطّبيّة، ولكنّني أعلم أنّها ما استدعتني إلا بعد أن جرّبت بها كلّ أنواع المعالجات الشّعبيّة، فقد جرّعتْها زيت الزّيتون، ومغليّ الأعشاب الطّبيّة، وأذابتْ رصاصة للبُرء من العين الحاسدة ...!

كان مرض البقرة بسيطا، لا يتعدّى كونه تلبّكا هضميا.

أعطيتها العلاج، وأنا أفكر في طريقة أقنع بها أم غازي لتسمح لي بانتزاع التّميمة المعلّقة بين قرني البقرة.

فسألتها:

- ما عمل هذا التّميمة يا أمّ غازي؟

- إنّها ضدّ النّطح والرّفس!

- ما هو المكتوب داخلها؟

- لا أعلم!

- أنا أعلم، إمّا أن تكون آيات قرآنية، ولا ينبغي أن يكون مكانها هنا في الحظيرة بين قرني البقرة!

وإمّا شعوذة، وهي غير نافعة!

- هذا صحيح!

- هل تسمحين لي بانتزاعها؟

- لقد كلّفتني ألف ليرة، ولكن لا بأس، خذها، فكلامك أقنعني!

انتزعتُ التّميمة، ووضعتها في جيبي، وأنا أنوي تعليقها في رقبة جاري الثّور الهائج الذي لا يكفّ عن ضرب زوجته ، لعلّه يهدأ!

في البيت، خلّصت التّميمة من القماش والنّايلون الذي يحفظه، وبدأتُ القراءة: رموز وحروف وأدعية وأوامر من كاتبه للبقرة بأن تتوقّف عن النّطح والرّفس!

أحرقت التّميمة رغم تنبيهات أمّي التي تحذّرني من المسّ!

بعد ثلاثة أشهر من الواقعة، اتّصلت بي أمّ غازي، تريد أن أعيد التّميمة، لأنّ البقرة رجعت إلى عادتها السّيّئة!

فما كان منّي إلا أن كتبتُ ورقة مليئة بالشّتائم للدجّال الذي كتب التّميمة القديمة، ثم لففتُ الورقة كما لفّها الدّجال، وأعدتها لأمّ غازي التي أعادتها إلى قرني البقرة، حيث أكدتْ لي بعد فترة من الزّمن أنّ البقرة عادت إلى هدوئها!

بعد شهرين استدعتني أمّ غريب لأعالج عجلها المصاب بالإسهال، قالت:

أعطيته مغلي قشر الرّمان، وحفنه من الشّاي وعلّقت في رقبته تميمة مجرّبة ولم يتوقّف الإسهال!

قلت لها لا بأس، سنسقيه هذا الدواء مع دوائك ...

نظرتُ إلى البقرة، فرأيت مجموعة من التّمائم بألوان مختلفة تتأرجح بين قرنيها! سألتها عنها، قالت:

الزّرقاء: للنطح والرفس

الحمراء: لزيادة الحليب

الخضراء: لعين (شكرية) جارتنا الحاسدة

الصّفراء: لتحمل بمولود ذكر

البرتقاليّة: للنّفخة

السّوداء: لطرد الذّباب

وهنا دفعني الفضول للسّؤال عن مدى فعاليّة التّميمة الزرقاء التي ملأتها بالسّباب والشّتائم؟

قالت:

هي أكثرها فاعلية، فما أن أعدتها إلى رأس البقرة حتّى تحوّلت من شيطان إلى شاة هادئة!

في الحقيقة، جوابها جعلني أفكر جدّيا في ترك الطّب، والالتفات إلى كتابة التّمائم!

صُنِعَ بِسِحْرٍ

عندما سكنتُ مدة من الزّمن في المدينة لأجل الدّراسة، كان من جيراني في الطّابق السّفلي محلّ لبيع الآلات الموسيقيّة.

مالك المحلّ رجل طويل أنيق جدّا، تنبعث منه روائح العطور الفخمة، في الثّامنة والخمسين من العمر، ولكنّه في أوج شبابه كما تدلّ على ذلك روحه ورشاقته!

يتقن العزف على كلّ الآلات الموسيقيّة، الشّرقيّة والغربيّة، ويتّخذ من المحلّ مكانا لإعطاء الدّروس الخصوصيّة في الموسيقا لمريديه.

تعرّفت عليه، وصرت أتردّد إليه في وقت فراغي، أعبث بالآلات الموسيقيّة، وأصغي إلى دروسه التي يلقّنها للطلاب، ونتجاذب أطراف الحديث عن الموسيقا وأحيانا عن السّياسة.

بعد فترة من صداقتنا، لاحظ ازدياد ثقافتي الموسيقيّة، كمعرفة العلامات، وقراءة النّوتة، والمقامات الموسيقيّة، وكيف ينتقلون بسلاسة من مقام إلى آخر أثناء الغناء!

دُهش لذلك، واقترح عليّ أن أتعلّم العزف، ولكنّني لم أرغب لاعتبارات عدّة!

فلا مستقبل للموسيقا في موطني الأصلي الذي سأعود إليه يوما.

ليس في قريتنا النّائية موسيقيّون، إلا إذا استثنينا (أبا خضر) عازف المزمار، وابن أخيه (بْشِيْش) ضارب الطّبل، وهما يعزفان سماعيّا عند إحياء الأفراح والأعراس، وهناك ثلاثة من المغنّين، اكتشفتُ بعد عودتي من المدينة أنّهم لا يعرفون من الموسيقا والمقامات شيئا، حتّى مؤذن المسجد، يؤذن على مقام ثامن من الفضاء الخارجيّ! بينما كان المؤذن في المدينة يؤذّن على مقام مختلف في كل وقت فيصدح بصوته السّحري الذي يليّن الحجر.

بدأ يقصدني كل من يريد محو أميّته الموسيقيّة! آخرهم كان (عبدالرّزّاق) مصلّح الجرّارات، لقد أتعبني كثيرا كسابقيه، وكأنّ علم الموسيقا كعلم الكيمياء في صعوبته!

قلت له: الدّرس القادم في حظيرة (أبو رياض النّوْ)

بعد يومين طرقنا الباب على أبي رياض الذي استقبلنا مبتسما وقال:

اليوم درس (رزّوق)!؟ يا مرحبا، ومشى أمامنا إلى الحظيرة، حيث بدأنا الدّرس، كانت البقرات تجترّ وتصغي إلى حديثنا.

وفي نهاية الدّرس، دخل أبو رياض وقال:

هل يستوعب رزوق الدّرس؟

أستاذ صارت بقراتي تخور بالمقامات السّبع، صنع بسحر!

الأخرق

كان صباحا ربيعيا جميلا محملا بعبق الخضرة ورائحة الأزهار، يبعث على التفاؤل والإشراق والسعادة...

تناولت دفتر المواعيد وأخذت أقلّب به وأنا أفكر كيف سأجعل يومي جميلا، خاصة وأنني سأقضي معظمه أسير في الطرقات الريفية أتنقل من قرية إلى أخرى، أشاهد عن قرب كيف تولد الحياة من جديد في فصل الربيع، وكيف تكتسي الحقول حلّة خضراء على امتداد النظر مزركشة بألوان الأزاهير البديعة.

كنت قد ارتشفت آخر رشفة من فنجان القهوة عندما رن الهاتف، كان المتصل (أبو نوّاف) ، يتصل ليذكرني بموعدنا بعد ساعة من أجل تحصين قطيعه البالغ مئة رأس من الأغنام العواس الممتلئة القوية ضد الحمى القلاعية...

أخبرته بأنني لم أنسَ الموعد، فهو مدون على المفكرة إلى جانب قائمة ديونه، وأنه ينبغي عليه أن يسدد ما عليه وإلا... !

ضحك وقال لي:

لن نختلف على المال... في الحقيقة، أبو نواف رجل صادق، لم ينكر يوما أي دين مترتب عليه، ولكن تأخير الدفع طبع من طباعه...

هو رجل في العقد السادس من العمر، نحيل الجسم، ذو لحية كثة ووجنتين بارزتين ، لا ينقطع عن التدخين، أسنانه خربة كأطلال آثار رومانية، يشوب عينيه صفرة تنبي عن يرقان انحلالي، ولكنه سليم معافى، أرجح أن هذه الصفرة بسبب التدخين المفرط!

لدى أبي نواف طرقا علاجية غريبة، فهو يعالج الإسهال عند الماعز بربط ذيلها بشريطة حمراء، حمراء حصرا، الصفراء مثلا لا تنفع !

ويعالج التهاب الضرع بحسب النصف الملتهب، فإذا كان النصف الملتهب يمينيا، فإنه يضع حصاة صغيرة يطوي أذن الشاة اليسرى عليها، ثم يربطها بمطاطة لمدة ثلاثة أيام !

أما طريقته في علاج البابيزيا، فإنه يمسك بقط مسكين، يقتله، ثم يأخذ فخذه ويسلقه بالماء جيدا، ثم يسقي الشاة المصابة بمرق فخذ القط !

وهنا أتساءل، كم قطا سيقتل فيما لو كانت الإصابة جماعية... !؟

ولمنع إصابة القطيع بالإجهاض، فإنه يأتي بحبة جوز، يفتح صوف الخاصرة اليمنى ويضع فيها حبة الجوز، ثم يغلق عليها بحبك الصوف بخيط من القطن، هكذا لكل شاة حامل طيلة فترة الحمل !

يحدثني عن طرق المعالجة هذه بثقة كبيرة رغم فشلها الذريع المتكرر، ويؤكد لي بأنه سيكون الطبيب البيطري الأشهر في المنطقة فيما لو كان يعرف القراءة والكتابة... !

اليوم أعطاني زجاجة بحجم مئة ميلي لتر، قريبة في شكلها من زجاجات الأدوية البيطرية، وقد استهلك ربعها تقريبا.

قرأت ما عليها ثم سألته:

من أين لك بهذه الزجاجة يا أبا نوّاف؟!

قال:

بينما كنت أرعى القطيع بالقرب من الطريق الدولية انقلبت سيارة، ووجدت هذه الزجاجة في مكان الحادث...

قلت له:

أراها ناقصة ! ماذا فعلت بها ؟

قال: جربتها... إنها ممتازة لالتهابات الصدر، حقنة واحدة تكفي لمعالجة الرشح والسعال... !

قلت له:

أبا نواف، هذه مادة تستعمل عند التصوير الشعاعي الظليل...

قال:

متأكد أنت يا دكتور...؟ ولكنها فعالة جدا ضد الماستوريلا ..

حفرة القدر

لم تكن (خدّوج) الفتاة الوحيدة في حياتي، ولكنها كانت الأجمل والأنقى والألطف، أو أنني كنت واهما فيخيل إليّ ذلك!

هي جميلة فعلا، فقد كانت تنظر إليّ من زاوية الشباك المطل على الشارع وأنا ذاهب بكامل أناقتي إلى كلية الطب البيطري، أحمل كراسة أنيقة، وأعلق على ذراعي الأيسر المريول الأبيض المكوي بإتقان.

كنت أشعر بقلبها يطوف من حولي كملاك حارس من لحظة خروجي من البيت إلى أن أصل إلى الكلية!

ترسل لي وردا مع أختها الصغرى، حتى إنني زرعت كتبي حقولا من الورد الجوري والياسمين الدمشقي الأبيض...!

بقينا على هذه الحال طيلة فترة الدراسة، أنا أزداد أناقة ووسامة ونضجا، وهي تزداد حبا وشغفا بي.

ويوم تخرجي، كان عيدا لها، تكاد تطير بجناحين من الفرح.

كلّمت أمي من أجل خطبتها، فوافقت على الفور، ثم أوصتني بالتريث إلى أن أعمل وأجمع مبلغا من المال يليق بها مهرا لها...

بدأت بالعمل رويدا رويدا، وبدأ المربون بالقدوم إلى البيت لاصطحابي من أجل معالجة حيواناتهم، فأركب معهم على رفراف الجرار الزراعي، أو

خلفهم على الدراجة النارية، ثم يعيدونني إلى البيت بملابس متسخة ومغبرّة، وقد علقت بثيابي روائح البهائم وروثها...

بدأتُ أشعر بتغير حال خدوج، فلم أعد أراها تقف على الشباك من بعيد، وقد انقطعت هداياها من الورد والياسمين، وشعرت بجفائها بعد أن اشتريت دراجة نارية أتنقل بها بين القرى خلال عملي...

وأخيرا، جمعت مهر خدوج!

أرسلتُ أمي خاطبة لها، فرفضت رفضا قاطعا، ولما سألتها أمي عن حبّنا القديم، قالت:

لم أكن أعلم بأن هذا هو مستقبل الطبيب البيطري!

نقلت لي أمي خبر رفضها وسببه، فأصبتُ بصدمة كبيرة جعلتني أمتنع عن العمل عدة أيام، وأنا أفكر في مبرر رفضها...!

كيف إذن هو مستقبل الطبيب البيطري!؟

هل يشبه مستقبل رائد الفضاء مثلا !؟

أم يشبه مستقبل جراح الأعصاب!؟

بعد أيام قليلة، جاء شاب من قرية مجاورة وخطب خدوج، وقضى على كل أمل لي بها ...!

ليس هذا فحسب، بل بدأتْ بإغاظتي عندما كانت تتعمد الجلوس مع خطيبها على شرفة المنزل تضحك وأنا عائد من عملي... !

تزايُد حجم العمل، وعزاء أمي لي، جعلاني أنسى خدوج وقصتها، حتى مرت شهور وسنون على زواجها، وزواجي أيضا...

وفي أحد الصباحات، رن هاتفي الجوال، وإذا برجل يطلبني لمعالجة بقرته بقرته المريضة، فتوجهت إليه بعدما أخذتُ العنوان.

ترجلتُ من السيارة، طرقت بابه، ففتحت زوجته، تأملتها فإذا هي خدوج، بثياب ملوثة بالروث، ومتشربة برائحة البهائم، وقد انتهت لتوها من حلب الأبقار وتنظيف الحظيرة كما يبدو ذلك بوضوح... !

قدَر الدّجاجة

مدّدت أمّ بركات الدّجاجة أمامها على شوال القنّب وقد امتلأت عيونها بالدّمع...

كانت الدّجاجة ذات اللّون الأحمر المرقّش مستلقية على أحد جوانبها تتنفّس بصعوبةٍ من منقارها المفتوح، عيونها متورّمة ونصف مغمضة، وعرفها شاحب كراية قديمة في أعلى السّارية...

هذه المرّة الأولى التي تمرض فيها مرضا ثقيلا كهذا!

لتمرض كلّ الدّجاجات ولا تمرض هذه...!

ليذهب كلّ الدّجاج إلى الجحيم ولتبقَ هي...!

عندما أتى الثّعلب على قطيع الدّجاج في السّنة الماضية كانت سعادتها غامرةً لأنّها نجت، بينما (طقّ) الثّعلب رقاب العشر الباقية.

سرّ هذه العلاقة غريب فعلا ! فهذه الدّجاجة هي الدّجاجة الوحيدة المتبقية من السّلالة التي أتت بها جدّتها مع جهاز عرسها...

أضف إلى ذلك أنّها ربّتها منذ لحظة خروجها من البيضة، وقد كانت تتميز بذكائها الخارق مقارنة مع نوع الدّجاج الغبيّ بطبعه.

إنّها عاجزة الآن أمام مرضها بعد أن طافت بها على الكثير من الأطبّاء البيطريّين الذين حقنوها بالأدوية ووصفوا لها العقاقير غير الفعّالة كعادتهم...

كان آخرهم أكثرهم غلظة وسماجةً ... لقد طلب تشريح الدّجاجة ليقف على سبب مرضها!

فما كان منها إلا أن حملتها وعادت بها إلى البيت.

لجأت إلى عرّافة القرية، فقرأت لها تعاويذ كثيرة، وأعطتها الأعشاب المجفّفة من غير فائدة!

ولكنها لم تيأس ولم تقنط... فقد كانت تدسّ الطّعام والشّراب في منقارها مع نقاط من أدوية مختلفة خاصّة بالأطفال.

وفي لحظة يأسٍ نذرت نذرا موثّقا بالأيمان المغلّظة بأن تذبح البقرة وتوزع لحمها على الفقراء إذا ما شفى الله الدّجاجة!

وبعد أسبوع من نذرها المعلّق هذا .ويا للعجب .شُفيت الدّجاجة فعلا!

وهنا؛ ذهبت السّكرة وجاءت الفكرة، صارت أمّ بركات الآن أمام مصيبة أكبر... ضرورة الوفاء بالنّذر وذبح البقرة!!!

لم تكن متأكّدة من أنّها قد قصدت النّذر في جوهره فعلا، أم أنّها توقعت موت الدّجاجة فنذرت هذا النّذر الكبير مقارنة مع الدّجاجة.

هذا ضرب من الجنون حقّا...!

حاولت أن تتملّص من نذرها بشتّى الوسائل، خاصّة بعد أن علم أهل القرية به.

استشارت شيخ القرية، وابن أختها معلّم المدرسة، ومختار القرية، وكبار السّنّ... ولكنّهم جميعا أكّدوا على ضرورة وفائها بالنّذر ..

يعني أن تذبح البقرة من أجل الدجاجة؟

هل هذا معقول؟!!

كان زوجها شديد الغضب، فقد هدّدها بالطّلاق . بعد كلّ هذا العمر . ما لم تجد حلا...

قال لها بالحرف الواحد:

أذبحك ولا أذبح البقرة... !

فلم تجد إلا أن تشتري البقرة من زوجها، فأعطته ما تدّخر من ذهب، وأخذت البقرة إلى القصّاب الذي قسّمها إلى حصص وزّعتها على أهل القرية بضمير مرتاح ونفس راضية.

في اليوم التّالي، كانت تشعل النّار تحت القدر عندما أقبل إليها ولد يجري مسرعا وهو يحمل الدّجاجة من ساقيها ورأسها إلى الأسفل يقطر دماً ويتأرجح كبندول السّاعة...

يا أمّ بركات... درّاجة ناريّة مسرعة دهست دجاجتك... .

حالة طوارئ

كانت السّاعة الرّابعة عصرا، وكان المشفى البيطريّ الأكاديميّ قد خلا من الطّلبة، ولم يبق أحد إلا أنا وزميل جرّاح وبعض الطّلبة المتدربين.

دخل أحد عمّال المشفى إلى غرفتنا لاهثا يرجونا أن نسرع لوجود حالة إسعافيّة ترافقها زوجة مسؤول كبير في الدّولة، فنهضنا مسرعين!

نزلت المرأة من سيارة مرسيدس فخمة، تحمل صندوقا فيه كلب من السّلالات صغيرة الحجم قد...

لا يهم الكلب الآن، المهم المرأة، إنّها شقراء طويلة لم أر أجمل منها في حياتي، لكأنها حوريّة من حوريات الجنّة!

كانت مرتبكة ومتأثّرة جدا!

سألتها بدهاء: ما بك؟

ردّت بعبارات سريعة متلاحقة لم أفهم منها شيئا سوى كلمة واحدة رددتها كثيرا: يقغيني يقغيني!

فقال السّائق بدهاء أكبر:

سيدي، زوجة المعلّم روسيّة، وهي بخير، أما يقغيني فقد صدمته درّاجة ناريّة مسرعة. ...

تظاهرتُ بالتأثّر والاهتمام الفائق، قلت لزميلي الجراح -الذي يجيد الروسيّة- أن يتجهّز للقيام بعمل جراحيّ، أما أنا فقد أجريت له صورة شعاعيّة بدت فيها كل عظامه مكسّرة، وأما صورة الأمواج فوق الصوتيّة فقد أظهرت نزيفا داخليّا سببه تمزّق الطّحال!

قلت للجراح إنّ الأولويّة الآن فتح البطن وإيقاف النّزيف، والكلب بحاجة إلى دم، أرجوك، ضع السّيّدة في حالة الكلب، وإننا نريد متبرعا للدم ...

فقالت وهي تبكي: ليتبرّع له أحدكم، يثغيني يستحقّ!

تسارع أداؤنا كثيرا كي لا توجِّه لنا السّيّدة تهمة الإهمال على الأقلّ!

ولكنّ نبض الكلب صار خيطيّا، وصار تنفّسه على شكل شهقات غير منتظمة.

ندرك أنا وزميلي أن هكذا حالات ميؤس منها، ولو كان الكلب لامرأة عادية لوضعناه جانبا منذ البداية ليلفظ أنفاسه بسلام، ولكن لابدّ من حركات الاهتمام هذه أمام هذه الأجنبيّة الجميلة!

مات يثغيني، فتوجهّنا إلى السّيّدة الجميلة التي تجلس جانبا، وضعنا القبّعات على صدورنا، وأخفضنا رؤوسنا، فصاحت وهي تبكي:

لقد مات يثغيني، صحيح ...!!؟

وألقتْ برأسها على صدر زميلي وأخذت تبكي بحرقة. أما هو فقد أخذ يضمّها ويمسح على ظهرها صعودا ونزولا! بحكم خبرته في التّعامل مع الرّوسيّات الشّقر...!

حمل العمّال يڤغيني واتّجهوا به إلى حاوية القمامة. فطار صوابها، وارتفع صوتها وبدأت تتلفّظ بعباراتها السّريعة!

قال زميلي الذي ما يزال يضمّها إلى صدره:

إنّها تشتمكم، يا لقساوة قلوبكم، ادفنوا يڤغيني في قبر!

حفر العمّال قبرا في حديقة المشفى، ودفنوا الكلب، ذرفت السّيّدة على قبره الكثير من الدّموع، ووضع زميلي عليه بعض الورد.

تشكّرتنا كثيرا لاهتمامنا ولإنسانيّتنا وصدق مشاعرنا تجاه يڤغيني، ثم غادرتْ كما جاءت ...!

نسينا أن نسألها أين سنقدّم لها التّعزية؟ لأنّ يڤغيني يستحقّ!

التّجربة اليابانيّة

صديقي (تحسين كعب الغزال) كان يدعو الله ليلا ونهارا ألا يكون ابتعاثه إلى روسيا للحصول على شهادة الدّكتوراه في الطّب البيطريّ، كنت أسأله لماذا؟

فيقول:

ألا ترى السّيارات الرّوسيّة، ماز، كماز، كراز، لادا، زيل، إيج ...؟

ألا تستطيع أن تحكم على الحضارة الرّوسيّة من خلال سيّاراتها!؟

ثمّ يا أخي، هناك، يشتري الطّالب أستاذه بزجاجة ڤودكا، أو علبة دخّان مارلبورو ...ألا ترى أن حمَلة الشّهادات الرّوسيّة لا يحظون بأيّ تقدير أو احترام أو مكانة علميّة بعكس العائدين من الغرب؟!

بعد عدّة أيّام أعلموه أنّ ابتعاثه سيكون إلى اليابان، فكاد قلبه يتوقّف من شدّة الفرح.

ودّعناه وأوصيناه بالاهتمام بالعلم واستغلال هذه الفرصة النّادرة. ..

كان صديقي خلال ستّ سنوات في اليابان مذهولا بطريقة الحياة هناك، بالنّظام فائق الدّقة الذي يضبط إيقاع الحياة اليابانيّة، فالحافلات تصل إلى الموقف بحسب الجدول المثبّت على الجدار بدقّة متناهية، الكهرباء لا تنقطع في اليابان، وإذا انقطعت يستقيل الوزير اعتذارا للشّعب، لا توجد

في اليابان إشارات مرور، وقد استعاضوا عنها بالجسور والأنفاق، ولا شيء يضيع في اليابان، توجد ثقافة الاعتذار في اليابان، ليس للزّبالة رائحة في اليابان، تعطي البقرة أعظم إنتاج بأقلّ التّكاليف في اليابان، العدالة والمساواة في اليابان، في اليابان ....

وكان تحسين يقول في نهاية كلّ رسالة إنّه سيستنسخ التّجربة اليابانيّة في بلادنا، لأنّها بحقّ أعظم تجربة بشريّة في العصر الحديث!

وفور عودة الدّكتور تحسين من رحلته العلميّة، سارع إلى تطبيق تجربته في بيته أولا، فصار بيته نموذجيا من حيث التّرتيب والدّقة والاحترام الفائق بين أفراد الأسرة واستغلال الوقت بالكامل، بل صار يأكل البرغل بالعيدان!

أمّا خارج البيت، ففي اليوم الأول من عمله في الجامعة، أراد العبور من ممرّ المشاة كما كان يفعل في اليابان، فصدمته سيّارة، ثم نزل سائقها وانهال عليه ضربا لأنّه اختار المكان الخطأ لعبور الشّارع.

وفي الجامعة ولمّا علم الجميع بنواياه الإصلاحيّة كتبوا فيه تقريرا للأمن الذي استضافه أسبوعا، ثمّ أعاده لا يسمع ولا يرى ولا يتكلّم!

أصيب الدّكتور تحسين بخيبة أمل، فترك الجامعة وأسّس مزرعة أبقار نموذجيّة.

قبيل الحلابة كان يضع موسيقا موتزارت وبتهوفن للأبقار لتعطي أقصى طاقتها من الحليب كما تعلّم في اليابان ولكنّها لم تفعل!

فاقترحتُ عليه أن يضع للأبقار موسيقا عربيّة، فوضع أغانٍ لأمّ كلثوم، و تقاسيم على العود لفريد الأطرش، ولكن أيضا لم تستجب الأبقار!

فاقترح عليه أحد العمّال أن يذهب إلى كراج حافلات الهوب هوب ويشتري أشرطة أغان شعبيّة، تردّد في البداية ولكنّني شجّعته فاشتراها، وكانت النّتائج مذهلة حقّا، فقد كانت الأبقار تلوّح بذيولها وبرقابها وتقفز في الهواء سعيدة مرحة دون أن تنتج المزيد من الحليب!

قال لي إنّه سيجري تحسينا وراثيّا لسلالة أبقار جديدة، حيث سيزاوج الأبقار الشّامية الهادئة قليلة الإنتاج مع سلالة فريزيان هولشتاين حادّة الطّباع غزيرة الإنتاج، آملا أن يحصل على سلالة هادئة غزيرة الإنتاج، بعد ثلاث سنوات من العمل الدّؤوب حصل على سلالة حادّة الطّباع قليلة الإنتاج! كانت هذه النّتيجة بمثابة الضّربة القاضية للدكتور تحسين!

هو الآن يعيش الآن في مصحّ للأمراض العقليّة!

ولادات خاصة

لم أفاجأ من طرق الباب بشكل جنونيّ في السّاعة الثّالثة ليلا، فهذه ليست المرّة المئة في مثل هذا الوقت، بل أكثر! فطبيعة عملي تجعلني أتوقّع أن يأتي أحد لطلب مساعدتي في أيّة لحظة: في اللّيل، في النّهار، في العيد، يوم الجمعة، وأنا نازل من سلّم الطّائرة عائدا من بعثة الحجّ، يوم زفافي ...

كان الطّارق حفيد الحاجّة جواهر، الذي قال لي جدّتي ترجوك أن تسرع لأن (نجوى) متعسّرة في ولادتها، وهي بحاجة لمساعدة، ولا أحد يستطيع ذلك إلا أنت!

أعرف أنّ هذه لحظات حرجة جدّا والأمر يتطلّب الإسراع فعلا، فحياة نجوى وحميلها قد تكونا في خطر فعلا!

ارتديتُ ثيابي بسرعة، وقد لبستُ نصفها بالمقلوب! هذا لا يهمّ، فالوقت ليل ولن يلاحظ أحد ذلك، أخذت بعض الأدوية والأدوات الضّرورية، ثمّ ذهبت مسرعا!

عندما وصلتُ كانت النّسوة حول نجوى واقفات وجالسات، والعجائز عند رأسها يقرأنَ المعوّذات والتعاويذ، ويطلبنَ المدد من الأولياء والصّالحين وكأنّ أمر الولادة بيد هؤلاء الميّتين العاجزين الآن حتّى عن مساعدة أنفسهم!

إحداهنّ تطلب المدد من مؤذّن الجامع الذي لم يتبْ بعد من سرقة الأحذية!

أمرتُ النّساء من حول نجوى بالخروج، ليس لأنّ المكان ضيّق وحسب، بل لأنّ الولادة تتطلّب الكثير من الهدوء والتّركيز، والقليل من التّنظير والاقتراحات والتّعليمات الفارغة.

هذه الولادة الثّانية لنجوى، ومن المفترض أن تكون أكثر سهولة.

نظرتُ إليها، كانت آلام الطّلق قد ذهبتْ حتّى بقدرتها على الكلام، وتكاد تغرق بعرقها، أمّا مؤشّراتها الحيويّة فجيّدة على الرغم من تعبها!

كان مجيء الجنين غير اعتياديّ، فقد ظهرتْ منه يد وقدم معا!

في مراحل تطوّر حملها، لم تقم نجوى بإجراء أيّ صورة (إيكو) لمعرفة وضعيّة الجنين في الرّحم، وبالتّالي، لم يعد من الممكن التّكهّن بطريقة مجيئه، ولكنّ خبرتي الكبيرة تقول إنّ الحمل توءم، والولادة عسيرة وربّما تكون ولادة قيصريّة!

أخبرتُ النّساء من حولي بذلك، نظرَتْ إليّ نجوى بعينيها الجميلتين وصدرها الممتلئ نظرة رجاء بأن أحاول مساعدتها، وأن أبتعد عن فكرة العمل الجراحيّ، فبدأتُ العمل!

وجود جنينين في رحم واحد يجعل تعديل المجيء أمرا شبه مستحيل، ولكنّني سأحاول ...!

تمكّنتُ بصعوبة من دفع الجنين ذي السّاق إلى عمق الرّحم، ثمّ سحب أخيه صاحب اليد بعد تعديل مجيئه أيضا.

عهدتُ لإحدى العجائز بإنعاش الوليد الأوّل، وبعد نصف ساعة من العمل المضني، أخرجتُ الوليد الثّاني.

كانت السّاعة قد صارت السّادسة والنصف، والشّمس تطلّ على الدّنيا برموشها النّورانيّة، وكان التّعب قد بلغ منّي كلّ مبلغ، أمّا نجوى فقد نسيَتْ كلّ آلامها عندما قرُب النّسوة وليديها إليها!

أعطيتُ نجوى بعض الأدوية، وتفحّصت التوءم، كان تنفسهما جيدا ومنتظما، وجسماهما سليمين مئة بالمئة.

سألتُ الحاجة جواهر:

ماذا ستسمّون العجلين التّوءمين؟

قالت: صاحب الوجه الأسود سأسمّيه (أوباما) وصاحب الوجه الأبرص سأسمّيه (ترامب) !

دكتور ... أرجوك، كن مستعدا، فـ (أحلام) ستلد بعد يومين أو ثلاثة!

المستهتر

هو قطّ فتيّ، وجهه -سبحان الله- كوجه قرصان محترف، داهية كثعلب ماكر، كأنّه زعيم عصابة قطّاع الطّرق!

لا يأتي إلى البيت إلا عندما يجوع، يقف تحت الحائط الغربيّ، يلعق كفّ يده اليمنى ويدعك بها وجهه المتّسخ، ثمّ يلعق باقي جسمه، وفي أغلب الأحيان ينسى تنظيف ذيله الثّخين! بعدها يقفز إلى الدّار مزهوّا وكأنّ شيئا لم يكن!

يبدأ بالتمسّح بي كأنّه ملاك بريء، فأفكّر في ركله ليحلّق في السّماء كغراب أسود.

اعذروني إذا ما كنت عنيفا معه، إنّه يسبّب لي إحراجات أنا في غنى عنها، كلّ يوم يطرق بابي أحدهم يشكوه!

هذا، أكل له زغاليل الحمام غالية الثّمن!

وهذا، أكل له صيصان دجاجته الأغرار!

وهذه ولغ لها في سطل اللّبن!

وأنا أدفع وأدافع عنه باستمرار.

أمّا ما حصل اليوم فيجعلني أفكّر جدّيّا في إطلاق النّار عليه!

لقد جاءني ولد يحمل بين يديه صندوقا، فيه سبع قطط صغيرة، هي نسخ طبق الأصل عن عبسي! قال الولد:

أبي يسلّم عليك ويقول لك: هؤلاء أولاد قطّكم عبسي، أنجبتهم قطّتنا، وقد فطمتهم منذ ثلاثة أيّام، وأنتم أولى بهم! ويقول لك أيضا:

(ضبّوا قطّكم، يا عيب الشّوم)

إلا هذا...

أمضى أبو نايف السّاعة التي قضيتها معه وهو يحكي لي عن حماره الرّمادي (شحرور)، يشتمه مرّة، ويمتدح ذكاءه مرّة أخرى، والحمار يقف صامتا مغمضا عينيه بالقرب منّا!

كان عليّ أن أنصت لأحاديث رعاة الأغنام، فهذا جزء من عملي اليوميّ، غالبا ما يتحدّثون عن أمور عامّة، كالجفاف وفقر المراعي، وغلاء الأعلاف، أو انتشار الحمّى القلاعيّة بين القطعان، ولا أحد يأتي على ذكر الحمار مدحا أو ذمّا، إلا هذه المرّة، لذلك أصغيتُ جيّدا لأبي نايف.

قال: حماري هذا أروع (إنسان) صادفته في حياتي، إنه الصّابر المحتسب، يرضى بالقليل من الطّعام بما تبقّى من تبن في معالف الأغنام، لا يمرض، ولم آت له بطبيب في حياتي، دائم الصّمت، بعكس الكلب الذي لا يكفّ عن النّباح، يطيل الشّرود والتّفكير، حتّى أظنّه حكيما من الحكماء، لا يشعر بحرّ ولا ببرد، أو ربّما يشعر ولكن لا أشعر بأنه يعاني، قائد، ونعم القائد، يسير أمام القطيع مزهوّا كقائد جيش، والأغنام تسير خلفه بكلّ ثقة.

وفي بعض الأحيان أشعر أنّه حمار، لأنه يمد رأسه إلى (الخرج) الذي على ظهره، يسحب كيس السّكّر الذي أخصّصه للشّاي، يمزّقه ثم يأكل ما فيه، وعندما أهرع إليه لأضربه وأخلّص ما تبقى من سكّر، أراه يقتلع وتده بأسنانه كمن يقتلع جزرة، ثم يهرب بعيدا، ولا يعود إلا إذا ناديته قائلا:

تعال، عليك الأمان ....!! فيعود وعلى وجهه ابتسامة خجولة نادمة. أحيانا، يسبّب لي إحراجات كبيرة، فقد لا حظتُ مؤخّرا أنّه يذهب مساءً، يستحمّ في السّاقية، ثمّ يغادر إلى جهة مجهولة، ويعود صباحا وقد أرّقه السّهر، لم أعرف أين يذهب، حتى اشتكاه أحد الأشخاص في مضارب ليست قريبة، قال إنه يقيم علاقة عاطفيّة مع حمارته البيضاء، وهذا لا يجوز....!

هل تعمل له عمليّة إخصاء يا دكتور؟

وهنا فتح (شحرور) عينيه، نظر إلينا، اقتلع وتده بأسنانه كمن يقتلع جزرة، ثم ركض بعيدا كأنّه صاروخ، ناداه أبو نايف قائلا:

تعال. ... عليك الأمان ...

ولكنه لم يصدّق هذه المرّة!

سُلّم على الجدار الخطأ

قبل خمسِ سنواتٍ وفي أحد أيّام الصّيف القائظة كنتُ عائداً من الحقل وأنا أغنّي (لاهجر قصرك وارجع بيت الشَّعر ..) عبرتُ الجسرَ فوق السّاقية الكبيرة فرأيتُ حماراً في وسطها لا يظهر منه سوى رأسه الكبير، ولأن السّاقية اسمنتيةٌ وبجدرانٍ مائلةٍ فقد عجزتُ عن إقناعه بالخروج، فتذكرتُ أصدقاءَ من الأطبّاء البيطريّن الذين يعملون في جمعية رعاية الحيوان، اتصلتُ بكبيرهم الذي قال لي: استأجر رافعةً مهما بلغتْ أجرتها ريثما يصلكَ فريق الإنقاذ القريب منك فقد شكَّلنا لذلك غرفة عمليات مربوطة بشكلٍ مباشر مع لندن!

نظرتُ إلى الحمار الذي يقف صامتاً شارداً وسط الماء، ثم نظرت حولي فرأيتُ بيت شَعرٍ ليس بعيداً يسكنه البدو الرُّحل.

اتصل بي فريق الإنقاذ الذي حددتُ له مكاني ووصل سريعاً مع وصول الرّافعة.

كان الفريق يركب سيارة دفعٍ رباعي (لاندروفر) بيضاء مجهّزة، مرسومٌ على بابها شِعار الجمعية: حمارٌ يحمل أثقالاً وفوقه شمسٌ حارقة.

عاين الفريق موقع الحمار وحددوا موقفه، بينما كان الأطباء البيطريون يجهزون أدويتهم، علّق فريق الإنقاذ الحمار بالأحزمة ورفعته الرافعة، ولمّا صار في الهواء ضحكَ ضحكةً بانت فيها نواجذه، وما أن وصلَ الأرضَ حتّى

هرع الفريق الطبي في معاينته، والمصوّر يلتقط صوراً لكلّ حركة وسَكَنَة، ويركز كثيراً على تعابير وجه الحمار الذي كان في غاية السّعادة، خاصّةً بعد أن أفرغوا في فمه زجاجة (سفن آب) باردة، ورئيس الجمعيّة يتصل كلّ دقيقتين ليطمئنَّ وليُطمئنَ السَّيدة (مارغريتا) في لندن.

وبينما يأخذ المصوّر صورةً جماعيّةً مع الحمار السّعيد الذي وقف في المنتصف، سمعنا صوت بدويٍّ يصيح من بعيد:

لماذا أخرجتم الحمار من السّاقية!؟ لقد أنزلناه فيها بناءً على طلب الطّبيب البيطريّ لأن حرارته مرتفعة!

عاين الفريق الطبي الحمار مرة ثانية...

قال الطّبيب: فعلاً الحمار مصابٌ بالحمّى ولابد من إعادته إلى الساقية من جديد.

بياض الثّلج

منذ شهورٍ مضت كنت قد اشتريت خروفاً صغيراً (ورديّاً) مريضاً بعدّة أمراضٍ ويوشك على الهلاك! عالجته وحممته فصار أبيض ناصعاً، كتلك الخراف التي في برامج الأطفال.

يومها قلت لأولادي الصّغار بأننا سنهتم به حتى يغدو سميناً لنذبحه، وعندها سأعرِّفهم على اللّحم المشوي، والكباب، والحميس، والشرحات، واليبرق باللية، والكبسة والكبّة... ، فسُرّ الأولاد كثيراً بهذه الفكرة.

وفعلاً، صار الخروف ينمو يوماً بعد يومٍ بفضل ما يقدمه الأولاد له:

لفّات الزعتر، كسرات الخبز اليابس، حبّات السّكاكر، مع جرعات الفيتامينات من الزّجاجة الخاصّة بهم، و قد أطلقوا عليه اسم: (بياض الثلج) تقول لي ديمة:

أبي، أعطني مالاً، أريد أن أشتري بسكويتاً لبياض الثلج!

صار الخروف لطيفاً و محبوباً ومطيعاً ومؤدباً يلعب مع الأولاد ويُسرُّ لرؤيتهم ويوشك أن يذهب معهم إلى المدرسة!

ولمّا حانت ساعة الحقيقة المرّة....

اتفقت مع زوجتي أن تأخذ الأولاد إلى بيت جدّهم لأقوم بذبح (بياض الثلج) وسلخه!

شحذتُ السّكين، ألقيت بياض الثلج أرضاً، نظر إليَّ مبتسماً بكلّ غباءٍ كعادة الغنم، يظنُّ أنني ألاعبه!

تذكرت الأولاد وتعلقهم به، وتذكّرتُ أنني ناقص الرّجولة لأنني لا أُحسن حتّى ذبح الدّجاج!

ألقيت السّكّين جانباً، ثم ذهبنا إلى حديقة المنزل لنأكل الخسَّ معاً.

طبيبٌ (بيشري)

في بلدتنا طبيبان وصيدلاني وطبيب بيطري ، في نهاية النهار يعود الأطباء والصيدلاني إلى المدينة ويبقى الطبيب البيطري (أنا) ، لابد وأنك تبتسم الآن لتوارد طُرف عن مرضى ألجأتهم الظروف إلى الطبيب البيطري ... ولكن الأمر جدّيّ ، بل في غاية الجدية ، فالأمر يتعلق بالحياة والموت ، فحاجة الناس للطبيب في ظروف الحرب كبيرة جداً.

حقا هي نعمة لم نكن نشعر بها ، ماذا نفعل بالمصابين والمرضى والولادات العسيرة ...؟ يا إلهي لابد من فعل شيء ...

نظر الوجهاء في اجتماعهم إليّ وقال المختار : شد حيلك دكتور ، فهمت ما يقصد ، قلت : لا مستحيل ... ابحثوا عن حل آخر ...!

قال شيخ المسجد : أنت تعلم يا دكتور أنه لا حلول ، وأنت طبيب تعرف كيف تؤخذ الحرارة وتحقن الإبر وتخيط الجروح... وقد جهّزنا لك المكان.

قلت : ولكن الأمر أكبر من ذلك بكثير ...!!

في نهاية الحوار وافقت لعدم وجود حلٍ آخر فعلا

لم أنم تلك الليلة من أصوات الرصاص ومن هذه الورطة الغريبة ..

وفي الصباح الباكر ارتديت طقم زفافي الذي أبدو فيه أنيقاً وتجهمتُ كما يفعل الأطباء، وقرأتُ المعوذات وتوجهتُ إلى عيادتي ...ولمّا ولجتُ غرفة

الانتظار كان هناك أربع نسوةٍ مع أطفالهن وامرأةٌ عجوز ، عندما رأيتهم سقط قلبي من صدري واستقر إلى جانب زائدتي الدودية ..

دخلت العيادة فاستقبلني شابٌ صغيرٌ عرف نفسه على أنه الممرض الذي سينظم الدور، ولكنه لا يعرف شيئاً في التمريض لأنه يدرس الهندسة الميكانيكية في سنتها الأولى ...

نظرتُ إلى العيادة التي تبدو كدكان سمان برفوفها المعدنية وقد عُرض عليها الدواء كما تعرض الأغراض للبيع : ميزان حرارة، سماعة ،مقياس ضغط ،خافضات لسان خشبية ،ومنظار أذن، سرير فحص ..!! بدت لي هذه الأشياء كلها وكأنها (إكسسواراتٍ) لا أكثر ...

-أدخل المريض الأول يا بني ..

-الله يعطيك العافية يا دكتور.. هذا الولد صار عمره خمس سنوات ولا يزال يبول في الفراش الله يوفقك لاقي لي حلاً ..

-هل يبكي عندما يتبول يا أختي ؟

-لا بل بعد أن يتبول خوفاَ من العقاب ...

-هل أجريتم له تحاليل بولية ...؟

-نعم ولكن منذ زمن وكانت سليمة ...

نظرت في الرفوف فلم أجد شيئاً مناسباً فقدمتُ لها النصائح التي سمعتُ الطبيب يقدمها لأمي عندما كنت في نفس سن الولد ثم انصرفت ...

-أدخل المريض الثاني يا بني ...

-يا دكتور الولد لا ينام ولا يرضع وجسمه كأنه النار ...

-ضعيه على السّرير يا أختي .. نظرت إلى لوزتي الولد فإذا هما كبيرتان بحجم خوفي في تلك اللحظة ..

فأعطيته على الفور إبرة روس الشهير مع نصف إبرة ديكلوفيناك الأكثر شهرةً وناولت الأم زجاجة مضاد حيوي مع زجاجة خافض حرارة ... وقلت لها راجعيني بعد ثلاثة أيام ... طبعاً لأطمئن بأن الطفل لا يزال على قيد الحياة ...

-أدخل المريض الثالث يا بني ..

وكانت امرأة عجوز ...

-(دخيلك يا دكتور) ركبتاي تزقزقان كمصراعي بابٍ عتيقٍ ومعدتي تكاد تتقطع ... وأفرغت كيس الدواء الذي في يدها على طاولتي .... كل مضادات الالتهاب غير الستيروئيدية ،وكل أنواع العصارات ... قالت :آخذ حبة من كل نوع وأدهن ركبتيَّ بلا فائدة

وبشق الأنفس أقنعتها بالإندوميتاسين والناكسيبرازول والعصارة ... تشكرتني وانصرفت ...!!

انتهاء اليوم الأول من دون حالاتٍ (عويصةٍ) جعلني أمضي الليل أدعو الله أن يجعل اليوم الثاني كاليوم الأول ..

وفي الصباح كانت العيادة مكتظة .. رجالٌ واقفون .. نساءٌ جالساتٍ .. أطفالٌ يبكون وكأن العيادة حافلة مكتظة بالركاب ...!

لملمتُ ثقتي بنفسي والتي تبعثرت في أرجاء العيادة بعد أن أمضيت الليل أرقعها حتى غدت كثياب الحلاج في نوبته الصوفية ...وقلت للشاب : أدخل المريض الأول يا بني ..

دخل المختار مبتسماً.. كيف الحال دكتور ...؟ ثم ضحك وقال : أرجو ألا تحول أيّاً من المرضى إلى المسلخ البلدي ..تريد شيئاً ؟؟؟ وانصرف ...ذكرني بتلك النكتة السمجة والتي سمعتها آلاف المرات ...

-المريض التالي يا بني ...

وهكذا أمضيت عشرة أيام صعابٍ كانت الحالات في مجملها حالات بسيطة باستثناء ذلك الشاب الذي أصيب بطلقٍ ناريٍ دون أن يمر بعظم الفخذ والحمد لله ..وتلك الجدة التي أتت بحفيدها لأطهره ...!!

وكان الفرج في اليوم الحادي عشر عندما تراخت الحرب قليلا وسُمح للناس بالحركة، فقد تمكن الدكتور داوود من الوصول إلى العيادة ليحلّ محلّي.

دخل المختار إلينا وأنا أسلّمه العيادة وقال لي ضاحكا:

دكتور... العيادة العينية بانتظارك، اعمل بها ريثما يصلنا طبيب العيون.

صنائع السّوء

أبو كايد أعرابيّ بسيط في العقد الرّابع من عمره، لديه قطيع من الأغنام العواس والماعز البلديّ.

ورث من أبيه خمسة عشر رأسا، وباقي القطيع تناسل وتزايد منها حتّى وصل المئة أو يزيد...

لا مشاكل تذكر في حياته، فهو يعيش بلا أصدقاء، إذ ليس للرّعيان أصدقاء، لأنّه لا وقت لديهم لإضاعته بعيدا عن الاهتمام بالأغنام ومشاكلها...

ومن أين له الوقت ؟!

وهو الذي يستيقظ عند الفجر، وينام عقب المغرب، وما بينهما يتنقّل ما بين المراعي أو يحلب النّعاج، أو يضع لها علفا، أو يسرق القليل من الوقت للذّهاب إلى سوق الأغنام ليشتري رأسا أو ليبيع آخر...

ليس فقط أبو كايد من يعيش هذه الحياة البسيطة الرّتيبة المعزولة...

وإنّما يشترك بها معه كلّ رعاة الأغنام على وجه الأرض!

الغريب الوحيد الذي يتردّد إليه بين الحين والآخر هو أنا، حيث يتّصل بي لطلب العلاج، أو للاستشارة الطّبّيّة في كلّ ما يتعلّق بالأغنام والماعز...

إلى هنا يبدو كلّ شيء طبيعيّ تماما...

ولكن ما يميّز أبو كايد هو أمر غريب حقّا!

فقد كسر ساق معزة بعد أن رماها بحجر عندما أراد إبعادها عن شجرة زيتون صغيرة أرادت أن تأكلها...!

في اليوم التّالي صدمت درّاجة مسرعة أبا كايد فكسرت ساقه ليظلّ طريح الفراش لمدّة شهرين متتابعين...

وبعد أن تماثل إلى الشّفاء؛ ضرب بالعصا نعجة . رفضت أن تُحلب . على فمها فكسر لها ثلاثة أسنان...!

في اليوم التّالي انزلقت ساقه فوق خزّان الماء الحديديّ، فوقع على حجر لتتكسّر كل أسنانه الأماميّة!

أمّا عندما قام الكبش بنطح (الثّني) الذي سيحلّ محلّه في قيادة القطيع في العام القادم فأرداه قتيلا، قام أبو كايد بضربه بالعصا حتّى تورّم...

في اليوم التّالي كان أبو كايد يسير بقطيعه على أحد الطّرقات مسببّا إعاقة للسّير!

ومن سوء حظّه؛ فقد تصادف ذلك مع مرور مسؤول كبير...

فتوقّف الموكب ونزل عناصر المرافقة وانهالوا على أبي كايد ضربا! وما تركوه حتّى تورّم... !

فظلّ شهرا طريح الفراش يتناول المسكّنات ومضادّات الوذمة...

أبو كايد الآن في المشفى في غرفة العمليات، فقد رفسه الحمار أسفل بطنه في المكان الذي أتحرّج من ذكره...

في الحقيقة؛ لقد رجوته البارحة مرارا أن يعزِف عن خصي أحد الخراف المعدّة للتّسمين، ولكنّه رفض!

وما كان منه إلا أن رمى الخروف أرضا وربط له خصيتيه بالمطّاطة...!

الخطّ البيانيّ

. أهلا ومرحبا بك دكتور... في الحقيقة سمعت الكثير عن مهارتك في معالجة الحيوانات، وقد استدعيتك لمعالجة بقرة حالتها عويصة بعدما حاول معالجتها ثلاثة أطبّاء قبلك، وكلّهم فشلوا في علاجها، وأنا متفائل بنجاحك...

.إن شاء الله... إن شاء الله... احكِ لي القصّة من أولها ..

فبدأ بسرد قصّة مرض البقرة ونحن نتجه إلى الحظيرة ..

قطع حديثه معي ونادى أحد أبنائه:

(شيل صندوق الدّوا عن الدّكتور ولاك...)

ثم وجه كلامه لولد آخر:

(ع السّريع... روح جهّز المي والصّابونة والمنشفة للدّكتور... وقول لإمّك تعمل قهوة... شلون قهوتك دكتور... ؟)

.وسط... وسط...

وصلنا الحظيرة، وبعد فحص البقرة وإعطائها الأدوية اللازمة، غسلت يديّ بالماء والصّابون وجلسنا لشرب القهوة...

ووعدته بزيارة ثانية غدا لمتابعة العلاج.

في اليوم التّالي استقبلني بنفس الحفاوة مع ابتسامة عريضة جعلتني أشعر بنجاح المعالجة من قبل رؤية البقرة...

تأكّدت من ذلك بعد الفحص الثّاني وملاحظة نسبة الشّفاء التي تجاوزت الثّمانين في المئة...

بعد أن شربت القهوة أعطاني ما طلبتُ من مال من دون جدال، وكيسا فيه عشرون قرص (شنكليش) وعشر بيضات بلديّات... وطلب منّي استمرار التّعامل معه طبيبا لحيواناته... فوافقت...

في الزّيارة التالية وبعد الانتهاء من معالجة بقرة مصابة بالتهاب الضّرع، طلبت صابونة وماء لأغسل يديّ، فجاء لي الولد بالماء والسّائل المخصّص لجلي الصّحون...

ثمّ سألني الرّجل:

(شو بتشرب دكتور... ؟)

فاعتذرتُ بحجّة ضيق الوقت بعدما لاحظت دعوته الرّخوة كمطّاطة سروالي...

في الزّيارة الرّابعة، حملت صندوق الأدوية واتجهت إلى الحظيرة بينما ظلّ الرّجل جالسا تحت ظلّ الشّجرة يشرب الشّاي، وطلب من أحد أبنائه مرافقتي. وبعد الانتهاء من العمل طلبت الماء والصّابون، فجاء فقط بالماء، غسلت يديّ، ثمّ سمعت الرّجل ينادي أحد أبنائه:

(ولاااااك تعال لهون... خود الابريق وسخّن الشّاي)

في الزّيارة الرّابعة، عالجت عجلا مريضا، وبعد الانتهاء، طلبت الماء والصّابون، فلاحظت تأخّر الولد، فغسلت يديّ في (القاصوصة) التي تشرب منها البقرةونشّفتهما بثيابي، ثمّ غادرت...

في الزّيارة الخامسة،... !!!!... لم يكن هناك زيارة خامسة... !

الانتقام

كثيرا ما أتمعّن وجهي في المرآة، لا لكي أتأكّد من كلام أمّي عندما تقول لي كم أنت وسيم، بل لكي أتأكد من أنّني طبيب بيطريّ...

هذا لا يكفي، فشكلي لا يوحي بأنّني طبيب بيطريّ، بل يوحي بأنّني رائد فضاء متأنّق وسعيد عائد لتوه من محطّة الفضاء الدّوليّة التي تسبح في أتموسفير الكرة الأرضيّة...

فلابدّ من إثبات آخر، بحثتُ بين أوراقي فوجدت ورقة التّحليل الذي أجريته منذ سنوات من أجل التّقصّي عن البروسيلا التي أُصبتُ بها بعيار ١ / ١٢٨٠ فألزمتني الفراش لعدّة أيّام...

أيضا هذا دليل لا يكفي لإثبات أنّني طبيب بيطريّ، فالكثير من النّاس يصابون أيضا بالبروسيلا:

عمّال المسالخ، الرّعاة، فنيّو المخابر، محبّو تناول اللّحوم النّيئة، محبّو تناول (المغطوطة) في الصّباح الباكر قبيل خروجهم لأشغالهم... .

لابدّ من دليل دامغ يثبت بأنّني طبيب بيطريّ، لذلك علي البحث عن مصدّقة التّخرج من الجامعة...

وجدتها، تأمّلتها، قرأت فيها اسمي الثّلاثي ثلاث مرّات... !

قارنت الاسم بما هو موجود في البطاقة الشّخصيّة، فكان مطابقا... !

إذن، المصدّقة لي، وأنا طبيب بيطريّ حقّا، لقد اقتنعت بذلك...

فكيف سأقنع الآخرين بعد هذين العقدين من العمل الحقليّ المتواصل... !!؟

منذ مدّة عالجت حالة مرضيّة عويصة في بقرة، وعندما شُفيت قال لي صاحبها:

ما كانت لتشفى لولا أنّني سقيتها زيتا مع مغلي البابونج البارحة !

بعدها عالجت قطيعا من الأغنام المصابة بجائحة الإجهاض، وبعد أن توقّف الإجهاض قال لي الرّاعي:

ما كان للإجهاض أن يتوقّف لولا بركات مولانا العارف بالله الشّيخ حمدو قدّس الله سرّه الذي قرأ الأدعية على القطيع... !

بعدها أعطيتُ صاحب بقرة مصابة ببثور على الضّرع علبة من مرهم اليود، وأوصيته أن يدهن مكان الآفات مرّتين في اليوم...

وبعد عدّة أيّام قال لي:

ما كانت لتشفى لولا دهنها بالشّحم المعدنيّ في اليومين الأخيرين !

وفي الآونة الأخيرة عالجت قطيعا من الماعز المصابة بالنّفوق المفاجئ، وبعد أن حصّنتها بالإنتروتوكسيميا توقّف النّفوق حالا...

ولكن صاحبها قال لي:

لم يكن القطيع مصابا بالإنتروتوكسيميا، إنّه مصاب بعين حاسدة حارقة خارقة متفجّرة، وما كان النّفوق ليتوقف لولا أن زوجتي أذابت لها رصاصة عدّة مرّات!

كلّ ذلك دفعني إلى الشّكّ في نفسي وفي أدويتي، حتّى إنّني فكّرتُ في استبدال الرّصاص والشّحم والزّيت والزّهورات لفعاليتها، بالأدوية لعدم فعاليتها...

اليوم عالجتُ عجولا مريضة عند ابن عمي، فدار حديث يشبه (التّخبيص في أرض الفصّة)(يعني يشبه الهرطقة) بينه وبين جاره . بحضوري . حول مرض العجول... أسبابه الجيوفيزيائية وعلاجاته الجيوسياسية...

شعرتُ من خلال حديثهما بأنّ كلّ النّاس أطبّاء بيطريّين، ما عدا الطّبيب البيطريّ... !

لقد كانت فرصة جيّدة لردّ الاعتبار عندما جاءني صاحب البقرة التي شفيت من الحالة العويصة، يطلب منّي أن أعالج له ضرع البقرة الملتهب، فقلت له:

اسقها زيتا مع مغلي البابونج واليانسون ..!

وعندما جاءني صاحب الأغنام المجهضة، يطلب منّي أن أعالج له خرافه المصابة بالتّخمة، فقلت له:

اذهب فورا إلى العارف بالله الشّيخ حمدو... .

وعندما جاءني صاحب البقرة المصابة بالبثور يريد أن أجري عمليّة فتاق في بطن عجلة صغيرة، فقلت له ادهنها بالشّحم المعدنيّ...

وهكذا حتَّى دستُ في بطونهم واحدا واحدا... هؤلاء الذين يأكلون جهدي وعلمي وخبرتي ...

سحر الكولا

في بداية عملي في المهنة، كان يعمل في المنطقة طبيب بيطريّ من الرّعيل الأوّل وعلى وشك التّقاعد، ربطتني به علاقة قويّة من المحبّة والمودّة ...

كنت أستفيد من خبرته الطّويلة، وكان يستفيد من معلوماتي الطّازجة...

ولكم أن تتخيّلوا مقدار بعده عن المادّة العلميّة من خلال نسيانه للأسماء العلميّة للأمراض...

فالمشيمة: بشيمة

والثاليريا: أبو صفار

والإسهال: خرار

والسوائل الأنفيّة: خنان

وهكذا... .

وقد كانت لديه طرق غريبة في المعالجة، من أهمها (الكولا)... نعم الكولا... فهو يعالج بها كلّ أمراض الأبقار، حتّى التهاب الضّرع...

ذات يوم كنت أعالج حالة بقرة راقدة معقّدة، وهي من أصعب الحالات المرضيّة على الإطلاق...

أمضيتُ ثلاثة أيّام بالمعالجة من غير فائدة...

وفي اليوم الرّابع ذهبت لمتابعة المعالجة، فتفاجأت بالبقرة واقفة تنظر إليّ، وإلى جوارها يجلس منتشيا الدّكتور صاحبنا ومن حوله أصحاب البقرة فرحين مسرورين...

كان الدّكتور يشرب الكولا، وإلى جواره زجاجة ليترين فارغة...

سألته :

كيف وقفت البقرة يا دكتور ؟

فردّ بثقة رافعا الكأس التي في يده:

الكولا يا دكتووووور... . الكولاااا... متى ستقتنع أنها دواااااء... !!!

نبذة عن المؤلف

عبد الباسط ابراهيم واكية

من مواليد مدينة تلبيسة في ريف حمص الشمالي في سورية في العام ١٩٧٤ .

حاصل على إجازة في طب وجراحة الحيوان من كلية الطب البيطري في جامعة حماة، خريج العام ٢٠٠٠.

أعمال سابقة:

- آلام الذاكرة_ مجموعة قصصية_ دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني

الفهرست

خارِج الحدود ١
سيد الموقف ١
الدكتور ويكيبيديا ١
الصورة الثابتة ١
الصّدمة ١
حارس الحظيرة ١
الطّبّ البديل ١
صُنِعَ بِسِحْرٍ ١
الأخرق ١
حفرة القدر ١
قدَر الدّجاجة ١
حالة طوارئ ١
التّجربة اليابانيّة ١

ولادات خاصة ٢
المستهتر ٢
إلا هذا... ..... ٢
سُلّم على الجدار الخطأ ٢
بياض الثّلج ٢
طبيبٌ (بيشري) ٢
صنائع السّوء ٢
الخطّ البيانيّ..... ٢
الانتقام ٢
سحر الكولا ٢
نبذة عن المؤلف ٢
الفهرست ٢